كيف انحرفت الحداثة عن مسارها الحقيقي وتحولت إلى عكسها؟

هاشم صالح.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، الحرية، النفاق، عصر التنوير، الاستبداد.

حاول المثقفون في أوروبا وأميركا تشخيص أزمة الحداثة منذ عدة سنوات. وتختلف التشخيصات والطروحات من مفكر الى آخر. ولكن هناك إجماعًا على أن الحضارة الغربية تعاني من أزمة معينة، أو حتى من مرض عضال.

ويتجلى هذا المرض على هيئة انحرافات عديدة كالإغراق في الشرب وتعاطي المخدرات، او الانزلاق إلى شتى أنواع الشذوذ، أو السقوط في أحضان النزعة العدمية والنسبوية التي لم تعد تميز بين الصح والخطأ، أو بين الخير والشر. وهكذا ضاعت المعالم والصدى التي كانت تضبط سلوك الانسان وتهديه وتحميه من شتى أنواع الانحرافات التي قد تدمره جسدًا وروحًا. وتبخَّرت القيم الكونية العامة التي تنطبق على جميع البشر. وأصبح كل شخص يطالب بحقه في تشكيل أخلاق فردية تخصه دون غيره، ولا علاقة للمجتمع بها. فلا توجد أخلاق أفضل من أخلاق أخرى، وكل شيء يتساوى مع كل شيء طبقًا للنظرية النسبوية ولا أقول النسبية.

هذا الوضع، وأشياء أخرى عديدة أيضًا، أقلقت المفكر الفرنسي "جان كلود غيبو"، فألف كتابًا تحت عنوان: "خيانة التنوير تحريات حول الهلع المعاصر في الغرب". فهناك أزمة معنى في الغرب، بل وعطش هائل إلى المعنى: معنى الحياة والوجود. كل شيء يحصل كما لو أن الإنسان الغربي بعد أن شبع من الماديات والشهوات الاستهلاكية راح يشعر بنقص ما في حياته، بجوع إلى شيء آخر غير الأكل والشرب والمتعة الحسية والرفاه الاقتصادي وبالتالي فأزمته تختلف نوعيًا عن أزمة الإنسان العربي أو المسلم، بل وتبدو مترفة أو ناعمة أكثر من اللزوم.

إن الباحث المذكور يطرح المشكلة بكل جدية وإخلاص، ويناقش مشاكل الغرب والشرق بنفس الروح المتفهمة والمنظور الواسع والمسؤول. بالطبع فإنه لا يخلط بين الأشياء ولا يقع في تلك النزعة التوفيقية أو التلفيقية التي "تميّع" المشاكل أو تطمسها بدلًا من أن تطرحها بكل جدية، وجرأة، ووضوح.

فإذا كان ينقد الحداثة الغربية أو المآل الذي صارت إليه اليوم، فإن ذلك لا يعني أنه يدعو للعودة إلى الآراء كما يرغب المحافظون أو المتزمتون. وإنما يريد أن يعيدها إلى جادة الصواب، إلى الفلسفة الكبرى التي أسستها وبلورتها قبل مائتي سنة على الأقل: أي فلسفة التنوير. فإذا كانت الحداثة تعاني من نواقص وثغرات واضحة حاليًا، فإن ذلك لا يبرر بأي شكل التراجع عن المبادئ الكونية والحضارية. على العكس، ينبغي أن

نتشبَّث بها أكثر فأكثر في هذا المناخ العالمي الذي انهارت فيه القيم أو انحلّت ولم تعد هناك إلا القيم التجارية الاستهلاكية من جهة، أو القيم الأصولية المتعصبة من جهة أخرى.

في هذا الصراع الجاري حاليًا، وعلى أوسع نطاق، بين العولمة الرأسمالية المتوحشة، والقوى الأصولية المتطرفة والإرهابية، ينبغي أن نعود إلى فلسفة التنوير التي أسست الحضارة والحداثة، ينبغي أن نحتكم إلى صوت العقل والمنطق. يقول "جان كلود غيبو" بما معناه: إن مشروع التنوير هو أعظم مكتسب حققته البشرية حتى الآن. فالحداثة الغربية هي التي توصلت بالإنسان، ولأول مرة في التاريخ، إلى مرحلة الفرد الحر والمستقل بذاته. لم تعد هناك أي قوة ظلامية، ولاهوتية، أو استبدادية تستطيع أن تضغط عليه أو تتحكم بحياته. لقد حررته الحداثة من الفقر والجوع أولًا. فحتى الفقير أو الإنسان العادي في الغرب يعيش حاليًا بشكل أفضل من الملك أو الوزير في القرن السادس عشر أو السابع عشر! لقد تضاعفت قدرته الشرائية بنسبة خمس مرات خلال قرن واحد فقط. ونقصت في ذات الوقت ساعات العمل والجهد، وزادت ساعات الراحة والتسلية والترفيه عن النفس. وأما المواد الاستهلاكية فقد تزايدت إلى درجة أن الداخل إلى أسواق الغرب أو المار في شوارعه يصاب بالصدمة والذهول إذا كان آتيًا من بلدان العالم الثالث للتو. ويقال بأن أبناء أوروبا الشرقية عندما زاروا أوروبا الغربية بعد سقوط الشيوعية مباشرة لم يكادوا يصدقون أعينهم. وجنّ جنونهم عندما رأوا كل هذا الغنى الفاحش الذي تتمتع به المجتمعات الرأسمالية في حين أنهم هم ما كانوا يجدون شيئًا لكي يأكلوه في متاجرهم وأسواقهم.

ولا يوجد أي إنسان غربي يخشى على نفسه إذا ما أعطى رأيه في السياسة، أو الدين، أو شؤون الحياة بشكل عام. فلا أحد يضغط عليك لكي تؤمن أو لا تؤمن، لكي تمارس الطقوس والشعائر ولا تمارسها، لكي تذهب إلى الكنيسة يوم الأحد أو لا.. أنت حر تفعل بحياتك ما تشاء بشرط ألا تؤذي الآخرين.. المهم أن تكون مستقيمًا في سلوكك وحريصًا على المصلحة العامة. والباقي مسألة شخصية بينك وبين ربك.. وبالتالي فعندما نتحدث عن أزمة الحضارة الغربية فإن هذا لا يعني أن هذه الحضارة على وشك الانهيار، أو أن كل شيء خاطئ ومنحرف في الغرب كما قد يفهم القارئ من مقدمة هذا المقال. لا، أبدًا. كل ما نريد قوله هو إنه يمكن لهذه الحضارة أن تكون أفضل. ثم نريد أن نقول بشكل خاص هو أن كل شيء ينتصر يتحول بالضرورة إلى شيء امتثالي، معياري، وحتى قسري. بهذا المعنى فإن الحداثة تكلَّست وتحجرت وتحولت إلى عكسها في بعض الأحيان.

فبعد انتصار الغرب على الشرق، أو الرأسمالية على الشيوعية راح الكثيرون في الغرب يتبجحون بحضارتهم إلى درجة أنهم نسوا نواقصها، بل ونسوا الشيء الأساسي الذي يميز فكر الحداثة عن كل ما سبقه: أي الروح النقدية أو الحرية النقدية بالأحرى. يقول المؤلف بالحرف الواحد: إذا كان الغرب يعاني من أزمة حاليًا فلأنه لم يعد يطبق النزعة النقدية على ذاته. وهذه النزعة هي التي تشكل جوهره، بل وهي التي أدت إلى تفوقه على كل النطاقات الحضارية الأخرى: كالنطاق البوذي، أو الكونفوشيوسي، أو العربي ـ الإسلامي... إلخ.

هذا يعني أنه لولا الحرية النقدية لما كان الغرب، ولما كانت الحداثة، ولما كانت الحضارة. وهذه الحرية ليس لها حدود كما ينص على ذلك مؤسس العقلانية التنويرية في الغرب: "إيمانويل كانط". فهو يقول بما معناه: "إن قرننا — أي القرن الثامن عشر، قرن التنوير– هو قرن النقد الذي ينبغي أن يخضع له كل شيء، بما فيه العقائد الدينية المسيحية الأكثر قداسة بالنسبة للشعوب الأوروبية". ولكننا نلاحظ أن الحداثة بعد مرور مائتي سنة على تأسيسها خانت "كانط" ولم تعد تضع نفسها على محك الشك والنقد. لقد تحولت إلى يقينيات مطلقة بعد أن كانت تساؤلًا مفتوحًا على المطلق: مطلق التجربة والحرية. وأصبح الكثير من مثقفي أوروبا وأميركا يعتبرونها بمثابة الامتياز الذي يمتلكونه دون غيرهم من بقية البشر. لا ريب في أنه امتياز، ولكن لا داعي لهذه النزعة الأنانية والانغلاقية التي تريد أن تحتكر الحداثة وأن تتقوقع على الذات، والامتيازات، والثروات.

ثم اختُزِلت الحداثة إلى أبعادها التكنولوجية، والمصرفية، والعسكرية وفُرِّغت من روحها الحضارية والإنسانية. هنا تكمن خيانة الغرب للمبادئ التي شكلت حضارته وحداثته قبل ثلاثة أو أربعة قرون. فالغرب الأناني يشبه الآن شخصًا غنيًا جدًا، ولكنه محاط بالأقرباء والجيران الفقراء. وهو يحاول أن يغلق عليه أبواب بيته أو حتى يسوره بالأسلاك الشائكة أو الجدران العازلة لكيلا يدخلوا عليه ويأكلوا بعض الفتات من عنده. يقول المؤلف جان كلود غيبو بما معناه: هناك هوس يسيطر على الغرب حاليًا هو هوس الغزو. وهذا الغزو يتجلى على عدة أشكال. فهو أولًا يتمثل بغزو المغاربة والسود أو الغرب والمسلمين بشكل عام لمجتمعات أوروبا عن طريق الهجرة. ولذلك اتخذت قوانين صارمة لمنع دخول أي شخص غير مرغوب فيه إلى جنة أوروبا. وهو يتمثل أيضًا بغزو البضائع والسلع المصنوعة بأسعار رخيصة جدًا في تايلاندأاو ماليزيا أو دول النمور الآسيوية إلى أوروبا. فهذه البضائع تستطيع أن تنافس بسهولة بضائع أوروبا ومصانعها، بل وتقضي عليها.

والآن بعد 11 سبتمبر أصبح الغرب يخشى من خطر آخر هو الإرهاب الأصولي. وبالتالي فهو يخشى ألا يكون قادرًا على الدفاع عن حضارته إلى الأبد. ولذلك فإنه يشعر وكأنه قلعةً مسيَّجةً ومحاطةً بالأعداء أو "بالبرابرة"! بالطبع فإنه يعتمد على قوته التجارية والتكنولوجية والعسكرية، وكذلك على جيوشه ومخابراته ورؤوسه النووية لكي يردع الغزاة وينقذ هذه الحداثة التي صنعها والتي تشبه المعجزة في بعض جوانبها. ولكن إلى متى يستطيع أن يظل على هذا الموقف الأناني والجشع؟ وما معنى الحداثة إن لم تكن خيرًا مشتركًا لجميع البشر؟ وهل كان الرواد الأوائل الذين بلوروا مشروع التنوير والحداثة يفكرون على هذا النحو الضيق والبائس؟ نحن نعلم إن "كوند ورسيه"، و"سان سيمون"، و"أوغست كونت"، و"جان جاك روسو"، و"إرنست رنيان" كانوا من أشد المدافعين عن القيم الكونية. وما كانوا يميزون بين إنسان وإنسان بحسب أصله وفصله، أو دينه ومذهبه.

كانوا يحترمون الكرامة الإنسانية في كل تجلياتها لدى البيض، أو السود، أو لدى المسلمين والمسيحيين، والبوذيين... إلخ. كانوا يحلمون بمستقبل بشري زاهر يسيطر عليه العقل ويلغي كل أنواع التمييز العنصري أو

الطائفي. وبعدهم جاء "غوته" لكي يقول بأننا ننتمي جميعًا إلى الجنس البشري. وبالتالي فلا داعي لأن نحقد على بعضنا البعض لأننا لا ننتمي إلى نفس الدين، أو نفس العرق، أو نفس اللغة. فوحدة الجنس البشري تجمعنا، وهذا يكفي.

وكان فلاسفة التنوير الأوائل يعتقدون بأنه يحق لجميع البشر، وليس فقط لسكان أوروبا وأميركا الشمالية، أن يستمتعوا بالحداثة والحضارة، والتقدم والرقي. وقد كتب "كوندورسيه" مرة يقول عام 1780: كما أن الحقيقة هي واحدة بالنسبة للجميع، فإنه يحق للبشر كلهم أن يعيشوا في ظل نظام يحكمه العقل، والعدل، وحقوق الانسان، والحق في الملكية الفردية والحرية والصحة... إلخ.

وأما "جان جاك روسو" فقد كتب عام 1872 يقول بما معناه: عندما يتعلق الأمر بالتفكير في الطبيعة البشرية فإن الفيلسوف الحقيقي ليس هنديًا، ولا تتريًا، ولا سويسريًا، ولا فرنسيًا، وإنما هو إنسان. وبالتالي فلا يوجد عرق أفضل من عرق، ولا جنس أعلى من جنس، وإنما جميع الأعراق سواسية من حيث الطبيعة البشرية. وقد وصل الأمر بـ"مونتسكيو" إلى حد القول: أنا إنسان، ولست فرنسيًا إلا بالصدفة. فلو ولدت في إيران لكنت فارسيًا، أو في الجزيرة العربية لكنت عربيًا. وبالتالي فحذار من النزعات العنصرية أو الشوفينية أو الشعوبية. فلا أحد أفضل من أحد إلا بالعمل، والإخلاص، وخدمة البشرية.

ولكن هل لا يزال الغرب وفيًا لهذا المنظور الواسع لفلاسفة التنوير؟ أم أنه انحرف عنه وخانه من أجل خدمة مصالح قومية أو حتى فئوية ضيقة؟ التجربة التاريخية أثبتت أنه حصل انحراف في لحظة ما. ولذلك شهدنا انتشار الآيديولوجيا الفاشية أو العنصرية أو اليمينية المتطرفة في ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، بل واستمرت هذه النزعة مسيطرة في إسبانيا حتى نهاية عهد "فرانكو"، وفي البرتغال حتى نهاية عهد "سالازار"، وذلك قبل الدخول في العصر الديمقراطي، والانضمام إلى الركب الأوروبي الحضاري.

في الواقع أن الحداثة الغربية مزدوجة الوجه، فهي أولا ذات وجه تحريري، إنساني، عقلاني. ولكنها في ذات الوقت تميل إلى التوسع، والهيمنة، وقمع الآخرين إذا لزم الأمر. وقد تجلى هذان الوجهان على مدار التاريخ طيلة المائتي سنة الماضية. فعندما كانت الطائرات الأميركية تقصف فيتنام كان المثقفون في شوارع باريس، وفرانكفورت، وجامعة كاليفورنيا يتظاهرون ضد هذه (الحرب القذرة) ويندّدون بالإمبريالية الأميركية. وعندما كان الجيش الفرنسي يرتكب أعمالًا بشعة في الجزائر، كان "جان بول سارتر" وعشرات المثقفين الفرنسيين يقفون إلى جانب الشعب الجزائري ونضاله من أجل الحرية.

وعندما كان سارتر وليفي ستروس وفوكو وسواهم يكتبون مؤلفاتهم الكبرى، كان صندوق النقد الدولي والبنك الدولي يهيمنان على العالم. في الواقع أن الغرب يتحدث باستمرار عن تأنيب الضمير الذي يشعر به تجاه

الشعوب الأخرى بسبب الحروب الاستعمارية، ولكنه يتصرف سياسيًا وفعليًا وكأنه لا يشعر بأي تأنيب ضمير! وهكذا تبدو طبقته السياسية في جهة وطبقته الثقافية في جهة أخرى. وهنا تكمن ازدواجيته أيضًا، وربما نفاقه. مهما يكن من أمر فإن الحداثة الغربية بحاجة إلى مراجعة ونقد لكي تصبح أقل غطرسة وعنجهية، وأكثر عدالة وإنسانية. وأما المثقفون العرب والمسلمون فهم مدعوون إلى نقد الأصولية والتعصب الديني من أجل التوصل إلى تفسير تحريري أو تنويري للتراث العربي – الإسلامي. وبعدئذ يمكن للطرفين أن يلتقيا مع بعضهما البعض على أرضية الفلسفة التنويرية التي تمثل الكنز الأعظم والمشترك للبشرية.